من له كيس فليأخذه

"ثم قال لهم حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء. فقالوا لا. فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك. ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترِ سيفاً " (لو٢٢: ٣٥-٣٦)

لوقا البشير هو الوحيد الذي ذكر هذه العبارة في إنجيله حيث خاطب بها السيد المسيح تلاميذه بعد أن أكلوا الفصح وقبل أن يخرج إلى بستان جثسيماني للصلاة في محاولة لإعدادهم لأحداث الصلب. والحقيقة أن من يتأمل هذه العبارة يجدها محيرة جداً. كيف للسيد المسيح الذي أمر تلاميذه من قبل: "لا تحملوا كيساً ولا مزوداً ولا أحذية" (لو١٠:٤) أن يعود ويخاطبهم على سبيل الوصية والأمر مطالباً إياهم بالاستعانة بالمال والمؤن والسيف؟ أليس في هذا تناقض واضح ووصيتان متعارضتان؟

إلا أن هذه الحيرة تزول عندما نلتفت لبعض الكلمات المحورية في هذا النص. فكلمة "حين" وكلمة "لكن الآن" تشيران بوضوح شديد إلى زمانين يمر بهما السائرون في طريق الجهاد والنمو الروحي. الزمان الأول والذي جاء في الماضي هو زمان الطفولة الروحية حيث عدم العوز لأية تعزية وهذا الزمان وقتي وقصير، وأما الزمان الثاني فهو زمان الصليب حيث الانتقال إلى البلوغ والنضج الروحي. المرحلة الأولى في الطريق هي مرحلة التعزيات المجانية غير المشروطة حيث تبتهج النفس بالحضور الخارجي للمسيح، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة اقتناء المسيح داخل النفس والاتحاد به وهي مشروطة بحركة حرة للإرادة لأخذ الصليب وحمله كل يوم:"من لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني" (مت١٠:٣٨). وكلمة "الآن" هي بعينها "يحمل صليبه كل يوم" (لو٩:٢٣) وهي تدل على حالة مستديمة من استعداد الإرادة لحمل الصليب وليس على مجرد حدث عرضي مؤقت.

والكيس يستخدم لحمل الأموال وهو يرمز للمقتنيات، والمزود يستخدم لحمل الطعام وهو يرمز للإحتياجات الرئيسية وبالتالي يكون أخذهما علامة على استعداد المجاهد ونيته الصادقة للإنفاق مما له: "وأما أنا فبكل سرور أنفِق وأنفق لأجل أنفسكم" (٢كو١٢:١٥)، واستعداده لخسارة كل شيء والتضحية بكل احتياج من أجل فضل معرفة المسيح. وكأن السيد المسيح يعلمنا مسبقاً أن: "الأمر حق والجهاد عظيم" (دا ١٠:١) أي أن آلام الباب الضيق هي آلام حقيقية جداً.

وأما من كان قد تجرد بالفعل وعاش مسكنة الروح ولم يعد له لا كيس ولا مزود فيعوزه أن يبيع الثوب أي أن يخلع إنسانه العتيق لكي يأخذ "سيف الروح" (أف٦:١٧). ومما لا شك فيه أن ثمن بيع الثوب هو زهيد جداً بالنسبة لثمن شراء السيف. فمن أين إذاً يستطيع المجاهد أن يحصل على فارق السعر لكي يشتري سيف الروح؟ وهل يقوى جهاد الإنسان الضعيف على تسديد كل نفقات خلاصه؟ بالطبع لا. فهنا عمل النعمة الذي وصفه مار اسحق: "بقدر ما يشقى الإنسان ويجاهد ويغصب نفسه من أجل الله هكذا معونة إلهية تأتي إليه وتحيط به وتسهل عليه جهاده وتصلح الطريق قدامه".